

## تمثيل السردية العربية المعاصرة "للمتخيل الاستشراقي"

## - جدل التماهي والتفكيك -

أ- إسكندر سكماكجي

جامعة قسنطينة-1-

الملخص:.

تسعى هذه الورقة البحثية إلى استقراء تجلي "المتخيل الاستشراقي" ضمن نصوص روائية عربية معاصرة، وموقف خطاباتها من هذا المتخيل في سياق جدلية العلاقة بين الأنا والآخر؟، كما تبحث في علاقة الخطابات النسوية العربية بمراجعة تاريخية لنمطية صورتها ضمن التمثيل الاستشراقي وفق استراتيجيات لإعادة التوضع بناء لهويتها الذاتية؟.

الكلمات المفتاحية: المتخيل الاستشراقي، التمثيل السردية، الرواية العربية، النسوية العربية، الهوية، الغرب، الشرق.

Abstract

The present paper is an attempt to investigate how the orientalist imagination is shown in contemporary Arabic novels within the context of a controversy between the self and the other? It is also an attempt to investigate how the Arab feminist discourse is revising its stereotypic image within the orientalist representation according to a strategy of relocalisation as a construction of its self identity?

**Key words:** orientalist imagination, narratological representation, Arabic novels, Arabic feminism, identity, the west, the orient.

## المقدمة:

لقد عرفت العلاقات شرق غرب، تدافعا حضاريًا محمومًا، سعى فيها الغرب ابتداءً لفرض تمثلاته على كل نقيض مفارق لمركزيته، فهو الذي أسس استمراريته على فرضية الضدية، المبنية على إستراتيجية إفراغ الشعوب من كل معنى أصيل يحفظ خصوصياتها، ومن ثمّة نجد تمثيلية استشراقية، رافقت ضرورات حضارية توسعية استعمارية وعكست تطلعات المؤسسة للهيمنة الثقافية؛ من خلال تعريض الشرق لكل أشكال التّمييط، والتّخيل المفارقة للواقع، المستدعية لوهم عوالم الحريم والشّبقيّة، لسحر الشرق وعجائبيته، المندفعة بأحلام الرومانس، التي صيغ بها المخيال الغربيّ تبعاً لأجندات غير معلنة.

لقد انخرطت السردية العربية، ضمن إستراتيجية من سيتخيل الآخر؟ وبهدف إعادة تعريف الذات التي طالها وهم التّخيل الغربيّ مستفيدة من دراسات التابع، في سياق مابعد الكولونيالية، الأمر الذي مهّد لفعل إبداعي عربيّ مغاير قائم على مراجعة التّمثيلات الاستشراقية، وتقويض البنى الفكرية التي تأسست عليها تلك التّمثيلات، وانسجمت مع هذا التّوجّه حركة نسوية عربيّة، انبثقت من رحم ذكورية استشراقية، اختزلتها في عوالم الشّهوة، والملذّات، نافية عنها أيّ دور اجتماعي خارج حدود مخيالها، فراحت هذه النسوية تعيد تمثيل الحدود وتروم تشييد الهوية. في حين لم يسلم وعي عربيّ من التّشكّل ضمن سياقات الهيمنة الثقافيّة الضّاغطة، بحكم التّفاعل القصري غير المتكافئ الذي فرض عليه، ليستحيل هجنة ثقافية، كرّست الرّؤية الاستشراقية عن الذات العربيّة التي تظّهرت في إبداعاته ضرورة شبقية، لا خلاص للآخر منها إذا هو شاء أن يكسر رتابة حياته.

ضمن هذه الطّروحات، تحاول هذه الدراسة الوقوف بالدرس، والتّحليل عند حضور المتخيل الاستشراقيّ في السردية العربيّة، وفق مقارنة تستقصي التّشابك بين مفهوم التّخيل والتّمثيل، وأدوار هذين المفهومين ضمن العلاقة شرق/غرب.

## 1/ المتخيل الاستشراقي (مهاده نظري):

لقد حظي موضوع المتخيل باهتمام كثير من الباحثين ضمن دراسات مختلفة فلسفية وثقافية واجتماعية وتعددت مفاهيمه تبعا للحقل العلميّ المرتبط به، فيما عدّ ميدانا للعلوم الإنسانية بكلّ تفرعاتها؛ حيث عرف "وليم جيمس" التّخيل بأنه: "القوة التي تستعيد نماذج أو صور Copies الإحساسات الماضية، وهو يميز بين وظيفتين للتّخيل إحداها مجرد استعادة الإحساسات كما كانت في الأصل، وهو ما يسميه بالتّخيل المستعيد Reproductive والثانية جمع عناصر متباينة من إحساسات مختلفة لتأليف مجموعة جديدة، وهو ما يسميه بالتّخيل المؤلّف والمبتكر Productive<sup>1</sup>، واستخدام "لاكان" مصطلح الخيالي أو (المتخيل Imaginary) تمييزا له عن الرّمزي والواقعي، وهي المفاهيم الثلاثة التي استخدمها لوصف مراحل تطوّر الطّفّل. ويستخدم لاكان مفهوم ميدان المتخيل للدلالة على "صورة الأنا" لدى الأطفال في لحظة متخيّلة يسمّيها مرحلة المرآة "Mirror Phase" بين (الشهر 6-18)<sup>2</sup>

أمّا في الدّراسات الثقافيّة الحديثة فإنّ مفهوم "المتخيل" يستخدم بتوسّع أكبر يتجاوز الأبعاد النفسيّة الفرديّة إلى الأبعاد الثقافيّة الجماعيّة حيث تكون متخيّلات الأفراد ذاتها مرتبطة بالأنماط التي يمكن تمييزها في الأنساق الثقافيّة<sup>3</sup>

وينطوي مصطلح "التّخيل" على أهمية بالغة ضمن البحث في علاقات شرق/غرب، وضمن الدّراسات الاستشراقيّة تحديدا؛ للدور الذي لعبه في التوجيه الأيديولوجي للمنظومة الاستشراقيّة؛ حيث أصبحت كلمات مثل صور Image، ومتخيل "Imaginaire"، ومخيّلة

"Imagination"، وتخيّل Fiction، عناصر أساسية من المفهوم الفينومينولوجي للعالم والوعي والواقع والأشياء؛<sup>4</sup> وهو ما يعكس خطورة هذا المفهوم حينما يوظف قصداً في بلورة الأخيلة الغربية وتعاطيها مع الآخر المختلف؛ إذ "إنّ المخيلة ليست سلطة تجريبية أو مضافة إلى الوعي بل إنّها الوعي بأكمله حين يتحقق، فكل وضعية عينية وواقعية للوعي في العالم تكون مشحونة بالمتخيل حين تتقدّم دائماً باعتبارها تجاوزاً للواقع".<sup>5</sup>

لعلّ هذا التّجاوز لحقيقة الواقع بفعل الرّغبة في نسج ما تحتاجه المنظومة الاستشراقية لصوغ ما يلزم من العقول تحقيقاً لاستراتيجياتها؛ لم تجد له مرتعاً خصباً تشكّل به وعياً سالباً، إلّا بالعزف على وتر مخيلة غربية، تشكّلت بفعل سياقات ومرجعيات تاريخية طبعها نزعة مركزية لاحتواء المختلف، أو تدجينه بما يحقّق شمولية النموذج الغربيّ ومن ثمة يتمظهر المتخيل ذرائعياً تبعاً لما يسهم في تشكّله، ومثال ذلك ما نعرث عليه في حالة المتخيل الاستشراقي الذي رافق طموحات منظومة عقدية توسّعية استعمارية، عرفت ألاّ سبيلاً لتحفيز أدواتها إلّا بخلق واقع من الخيال؛ واقع شرقيّ رومانسيّ تمّ تسويقه "فردوساً مفقوداً"، وأرضاً موعودة. ولم يكن هذا التدجين للمخيلة الغربية وليد لحظة الاحتكاك المباشر بالآخر/الشرقي، بل يمكن تقصّيه في الموروث الفلسفي، والعقدي الذي تستند إليه منظومة الاستشراق، والتي نجد جذورها في التقسيم اليوناني للعالم إلى "إغريق" و"برابرة" أو بعبارة أخرى إلى "أحرار بالطبيعة" و"عبيد بالطبيعة"<sup>6</sup>

وقد اضطلّعت الكنيسة بدورها في تسويق هذه الأساطير التي تدنّس المختلف وتشوّهه؛ حيث ورد في سفر الرؤيا: "ثم جاء واحد من السبعة ملائكة الذين معهم السبع جناحات وقال لي: هلمّ فأريك دينونة العاهرة الكبرى الجالسة على المياه العديدة التي زنى بها ملوك الأرض وسكر سكان الأرض من خمر زناها وعلى جبهتها مكتوب لغز بابل العظمى أم العاهرات ونجاسات الأرض، ورأيت امرأة سكرى من دماء القديسين ومن دماء شهداء

عيسى"<sup>7</sup>؛ وبهذا تكون أغلب الصور السلبية التي ارتسمت في المخيلة الغربية، والتي كرسها أدبيات الاستشراق جنائية برسم الموروث الفلسفي والكنسي الغربي، الذي اندفع به "نابليون بونابرت" نحو الشرق تحت يافطة "عبء الرجل الأبيض" الحامل لقيم أفضل المخلوقات البشرية، ووفق خلفيات ثقافية، وسياسية، وعسكرية غير معلنة عمل فيها "نابليون" على تقديم الحلم المصري لمخيلة جنوده، وقادته، وكل الدوائر التي شكّلت مرتكزا يستند إليه في تحقيق مشروعه التوسعي، وهو الذي كان إلى جانب حرصه على حمل كتب الرحلات الشرقية، كان حريصا وهو يتوجّه إلى مصر على اصطحاب نسخته الشخصية من رواية "أشجان الشّاب فترتر" للشاعر والأديب الألماني "غوته Goethe".<sup>8</sup> وهو ما يبرز الدور الذي لعبته أدبيات الاستشراق في خلق شرق مفارق لواقع، غيب كل مظهر فيه عدا ما يحلو للمخيلة الاستشراقية أن تصطنعه، وتخلقه خلقا من رحم خزّان لا ينضب من فنون التعمية و"الكذبة العذبة"، التي صورت الشرق "يوتوبيا جاذبة" تستحقّ الاكتشاف، ولا يمكن هنا إغفال الفعل التي أحدثته السردية العربية القديمة كذلك من "إثارة أدبية" انعكست في كتابات المستشرقين؛ فقد قام عدد كبير من المستشرقين، وعلى رأسهم "دي ساسي Antoine-Isaac, baron Silvestre de Sacy" و"برسفال de Perceval" و"مولر" و"هاجنت" و"غالان" و"فريتاغ" و"بورغشتال" و"لومسدن" طوال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، بتحقيق نخبة من عيون الآداب السردية العربية القديمة وطبعها وترجمتها ومنها "ألف ليلة وليلة"، و"كليلة ودمنة"، و"مقامات الحريري".<sup>9</sup>

يحلينا ماسبق للوقوف على علاقة التخييل بالتمثيل السردية، ونموذجنا في ذلك الاستشراق الذي ألحّ على إنتاج صور نمطية دعائية عن الشرق، أضحت بحكم قوّة المؤسسة، وسطوة الثقافة حقيقة. وهذا بالتحديد ما أشار إليه الباحث "عبد النبي ذاكِر" في سياق اشتغاله على الرحلة حين اعتبر "أنّ التمثيلية لا يمكن أن تتملّص أو تنفلت من لحظتها التاريخية ومناخها السوسيوثقافي الذي يحكمها ويلونها ويؤدلجها، لذا لا يمكنها إلا أن تكون

محدودة كمّا، وقابلة للتصنيف والتقيء مادامت تنبثق من توجه أيديولوجي معيّن، ومن خليط معقّد من الأفكار والمشاعر القابلة للمعاينة تاريخيًا، ونخصّ هنا بالذكر تمثيلية الأجنبي<sup>10</sup>.

## 2/ السرد بين التخيل والتمثيل وإعادة التشكيل:

لعلّ الحديث عن "التخيل" لا يستقيم بمعزل عن صنوه "التمثيل"؛ بوصف هذا الأخير الجهاز الذي يدير طروحات المتخيل، ورؤاه الثابتة التمثيلية عن الآخر/الشرقي/المختلف، متجاوزا حقيقة "الواقع غير الدال" إلى فرضية التصديق بحكم قوّة التمثيل، وهيمنة الثقافة؛ ولذا تجتهد أنظمة القوّة من أجل محو تلك المسافة الفاصلة بين "الحقيقة" وتمثيل "الحقيقة"، بين ما هو جوهري في المعرفة، وما هو مجرد تمثيل لا أكثر، تمثيل يزدحم فيه الخيال بالحقيقة؛ ليجسد من ثمة وعي الذات للآخر أكثر ممّا يجسد هذا الآخر، ويصوّره كما هو في الواقع، وتبقى قدرة التمثيل على النجاح مرهونة في كونه "صادقا ومقنعا إلى الحدّ الذي لا نطقن إلى أنّه غير حقيقي"<sup>11</sup>. ما يكشف عن فعالية متينة هنا لجهاز التمثيل في قدرته على تزييف الواقع، وتحميله عوالم الأحلام الاستشراقية؛ وبهذا المعنى كذلك يتداخل التمثيل بالخيال بما هو طريقة في الرؤية تتجاوز الإطار الحسي المباشر، إلى ماله علاقة بالوجود في عالم الأذهان.

لقد أضحي التمثيل السردّي (Représentation Narrative) من أهمّ القضايا التي تسلّط عليها الاهتمام في الدراسات الثقافية، خاصّة أنّه مجال تتقاطع في تناوله اختصاصات معرفية وفلسفية بالغة التنوّع، ويتموضع في القلب من إشكالية المعرفة بالعالم الخارجي الذي يتبدى وكأنّه مستقل بذاته، وينطوي على العناصر التي تمكّن من معرفته، دونما حاجة إلى الذات التي يمكن أن تضطلع بإدراكه وإنتاج الفهم بجزئياته وتفصيلاته<sup>12</sup>.

وقد استندت تمثيلية الغرب السردية الحاملة بشرق رومانسي غرائبي، المتطلّعة لتحقيق نزوات رغوية، الساعية لتسويق ذات "ترنسندنالية" متداعية بالخيرية، بمقابل آخر شرقي عاجز عن

تمثيل نفسه، يحتاج لرجل أبيض يخلّصه من خموله وينعم عليه من وافر القيم الوجدانية، اللاغية لكل اختلاف، استندت كل هذه الدعاية التمثيلية السردية على مرجعيات تخيلية، تكشف عن ارتباط عضوي بين التخيل والتمثيل؛ فالكاتب عندما يقوم بتمثيل موضوعه فهو يحمي أيضا بالمخيلة من أجل إعطاء موضوعه الكثافة الدلالية والرمزية التي يتطلبها. وهذا ما "قصده أرسطو عندما تحدّث عن المحاكاة... إنّما كان يدرك أن الأمر يتعلّق بالمحاكاة المبدعة التي تحتفي بالخيال...".<sup>13</sup>

يمكننا الإشارة في نفس السياق كذلك إلى الصيغة السردية التي مثلتها الرواية الحديثة، وعلاقتها بالتمثيل الغربي للشرق؛ بوصفها نوعا سرديا رافق في نشأته سياقات ثقافية عبرت عن حقبة تاريخية غربية توسعية، وجدت فيها وسيلة لبيان فلسفتها بشكل إيجابي، تردّد صداها في بطون روايات عديد الأدباء الغربيين؛ إذ يؤدّي السرد وظيفة تمثيلية شديدة الأهمية في الرواية، فهو يقوم بتركيب المادة التخيلية، وينظم العلاقة بينها وبين المرجعيات الثقافية والواقعية... فالسرد في وظيفته التمثيلية يركّب، ويعيد تركيب سلسلة متداخلة من عناصر البناء الفني ليجعل منها المادة الحكائية التي تتجلى في تضاعيف السرد...<sup>14</sup> ومثال ذلك في حالة التمثيل السردية الاستشراقية؛ هو تلك العلاقة بين التجليات الخطابية، و المرجعية الفكرية التي دفعت بالغرب لتمثيل الشرق على النحو الذي نجده في رواية "روبنسون كروزو" للروائي الإنجليزي "دانييل ديفو Daniel Defoe" إذ عدّت أحد التماذج المبكرة للرواية الغربية التي قدّمت تمثيلا سرديا بارعا للأخلاقيات الاستعمارية، فقد استنبطت في تضاعيفها مغامرة رجل أبيض في عالم غريب ونجاحه في السيطرة على ذلك المكان، وامتلاكه وبسط قيمه الأخلاقية عليه.<sup>15</sup> ما ينطوي على استعمال "ذرائعي" للرواية يبرز ألعيب الكتابة في تمويه الواقع وتزييف حقائقه، والتعامل مع النصّ الإبداعي ليس بوصفه انعكاسا للواقع أو ترجمة أمينة لحياة صاحبه، وإنّما بكونه تشخيصا مغايرا لعناصر الكون وتعبيرا عمّا تستتصره الدّات من أحلام وتطلّعات محبّطة وحقائق ملتبسة وغامضة".<sup>16</sup>

لم تتقبل التمثيلية الغربية الاختزالية، فكرة وجود صوت خارج سمفونيّتها لشعوب تمّ تقديمهم بوصفهم عالة لا يملكون إلى تمثيل أنفسهم سيلا، وفي أحسن الأحوال تمّ التشكيك بهذه المقدرة، من قبيل مصادرة الناقد والرّوائي الأمريكي "جون أباديك John Hoyer Updike" للنص المترجم لرواية "مدن الملح-التيه"، حيث يقول فيه: "إنّه من المؤسف حقاً أن عبد الرّحمن منيف كما يبدو، ليس من المستغربين إلى حدّ الكفاية حتى ينتج سردا يشابه مانسميه رواية، فصوته صوت مفسّر في مخيم قبيلة، ولا يوجد في كتابه هذا أي أثر لحسّ المغامرة الخلقية للفرد الذي يميّز جنس الرّواية (منذ دون كيكوته وروبنسون كروزر)، من الأسطورة والخبر التاريخي؛<sup>17</sup> ومن ثمّ تعتبر أكثر الإفادات مشروعية وعمقا التي توفرت عليها دراسات التابع، هي توظيفها لمفهوم التمثيل (Représentation)، وطوره سعيد في نظريته التقدّية القائمة على هذا المفهوم الذي اقترحه "فوكو Foucault" أي الكيفيّة التي تتجلّى فيها الأحداث ضمن الخطابات بكلّ أشكالها فلا توجد أحداث مجرّدة، إنّما الأحداث الواقعيّة التّاريخيّة منها، أو المتخيّلة (الأدبيّة)، تظهر في سياق خطاب تعمل استراتيجيّاته على التّحكم في نوع الحدث، وتظهره طبقا لسلسلة متكاملة من التّحيّزات الثقافيّة الخاضعة لذلك السّياق.<sup>18</sup>

وقد تجلّت هذه الإفادات في السردية العربيّة، ضمن إستراتيجية مساءلة التّراث الاستشراقي؛ وذلك إمّا باللّجوء إلى استدعاء المكوّنات السردية التاريخية والتّراثيّة كشكل من أشكال الاختلاف لا المطابقة... مثل نصوص الرّوائي المصري جمال الغيطاني؛ فهو يعتبر من موقع الاختلاف مع الرّواية الأوروبيّة أو الرّواية الغربيّة: "أن الرّواية العربيّة وأساليب السرد الرّوائي تستنبط قوانينها من داخلها، وليس من داخل الرّواية الأوروبيّة، أو الرّواية الغربيّة الحديثة...". أو من خلال أعمال سردية تتناول الآخر من خلال تحبيك يعيد مساءلة الماضي الاستعماري ويضعه في صورة الدّلالة المعكوسة للرّسالة الحضاريّة التي يزعم لنفسه حق النّهوض بها على النّحو الذي نقرأه في "رواية (كتاب الأمير) لواسيني الأعرج".<sup>19</sup>

لكنّ سرديات "التابع" لم تعرف خطّ سير مستقيم في سياق تعاملها مع التمثيلات الاستعمارية، وإنما فرضت الظروف التي أحاطت بوعيه أن يمثل لتأثيرات النخبة التي تصوغ الثقافة العامة بسبب قوتها وهيمتها فيتعدّر استعادة ذلك الوعي بصورته الحقيقية، لأنّه مستعاد عبر تمثيل قوّة النخبة وثقافة الاستعمار، ولهذا فهو منطلق عمّا ينبغي أن يكون عليه ومنحرف عن هدفه، ومتشكّل ضمن استراتيجيات خطابية أقوى منه يستحيل السيطرة عليها.<sup>20</sup> فيتمظهر التابع متشظيًا، غير مستقر على حالة خطابية واحدة، تتنازع تطلّعات نحو كينونته ومخالفات ترسّبت بفعل التدجين الذي عرفه أثناء الحقبة الاستعمارية، وهو ما حاولت الوقوف عليه "سيفاك" من خلال فحصها بدقّة: "الفرق بين "الحديث إلى" و"الحديث عن"؛ فالمرء حينما يتحدّث إلى الآخرين، في المجتمعات التي مرّت بالتجربة الاستعمارية، يحاول في لا وعيه أن يظهر اندماجه في السياق الثقافي للمخاطب، ولكنّه حينما يتحدّث إلى نفسه، يريد الانتماء إلى السياق الثقافي الأصلي المعبر عن هويته".<sup>21</sup>

ولا تبعث هذه الحال للتابع على الدهشة، بقدر ما تظهر صنيع التمثيل الاستعماري في الشعوب التي نالها وتبيّن حقيقة فرض تمثيلات معينة تبعا لنسب القوّة التي يمتلكها الممثل على الممثل له؛ إذ إنّ الثقافات تنمو وتؤثر في ضوء جدلية القوّة والانتشار أولا: فأخذها وهي قوّة، يحيل فعل الإفادة إلى استيعاب مبرمج، يجعل الحضارة الجديدة هاضمة بامتياز، في حين يحقق توسع دولتها تسلل ثقافتها إلى الأخريات، أي مدارات الإمبراطورية وتأثيرها هناك.<sup>22</sup>

### 3/ جدل المتخيل الاستشراقي في السردية العربية:

يمكننا أن نشير - قبل أن نستعرض بعض التماذج من السردية العربية - الرواية أساسا - وكيفية استحضارها للمتخيل الاستشراقي؛ تفاوتات بين تفكيك لهذا الموروث المتخيل، و"مطابقة" عبر التماهي مع تصوّرات الآخر للذات العربية - إلى تشكّل الوعي التخبيوي العربي، أساسا بلازمة الهيمنة العربية التي مارست عليه ضغطا سالبًا لوعيه، أفرز عناصر

انفصال حقيقي في الكائن العربي الإسلامي، الذي ما انفك منذ مختلف لحظات اللقاء العنيف مع هذا النموذج الحضاري الجديد، يتحدّد من خلال الآخر، وينظر إلى مقوماته الذاتية في ضوء ما يفرضه عليه<sup>23</sup> إذ ليس من السهل إهمال أثر ذلك في صوغ ذائقة الروائي وموقفه ومنظوره وتقنيات السرد التي يستعين بها؛ فالرواية في نهاية المطاف ظاهرة ثقافية/أدبية متّصلة بالعالم عبر التمثيل السردية، ومنفصلة عنه بالتعبير الذاتي عن المؤلف كمنتج للنص وخالق للعالم المتخيّلة فيه.<sup>24</sup>

إلى هنا تتمظهر السردية العربية غير منفكّة عن العلاقة الجدلية مع الآخر، وأنساقه الثقافية، وموروثاته الاستشراقية سواء في تمثّل الوعي الذي أشاعه الخطاب الاستعماري في تفسير الظواهر الثقافية، أو اجتهادا في تفويض المحمولات الاستشراقية عن الذات العربية، الأمر الذي يطرح جدلا عن نسبة حضور الغرب في الوعي واللاوعي العربي، وكيف تمظهرت الحمولة الاستشراقية في فكر ومتخيل النخب العربية؟

#### 4/ الاستلاب/محاولة في التماهي:

تعرّض المثقف العربي لإغواء الحضارة الغربية، تحت بھجة العلم والتقدّم والحداثة، وانسجم من حيث يدري أو لا يدري مع نسق ثقافي استشراقي، ظلّ يتمثّل شرقا مشوّها، ولم يتوجّس هذا التخبيوي العربي خيفة من الدّعوة للتجرّع من هذا التراث اللصيق بالخيال، المنافي للواقع في تمثيلات الاستشراقية، من قبيل دعوة "طه حسين" القائل فيها: "كيف تتصوّر أستاذا للأدب العربي لا يلمّ، ولا ينتظر أن يلمّ بما انتهى إليه الفرنج، أي المستشرقون من النتائج العلمية المختلفة حين درسوا تاريخ الشرق وأدبه ولغاته المختلفة، وإنما يلتمس العلم الآن عند هؤلاء الناس...". فيما عرفت هذه الدّعوة من "طه حسين" استهجانا، واعتبر السّباعي: "أنّ هذه

الآراء ليست سوى ترديدا محض لآراء الغلاة المستشرقين ضدّ العرب والإسلام، أمثال مارجوليوث S.Margoliouth (1858-1940)<sup>25</sup>

وارتبطت آراء طه حسين وبعض معاصريه مثل "الزيات"، بحملة "بونابرت" على مصر، وقد لفتت آراؤهما إزاء هذه الحملة الدهشة، ودفعت البعض لتحليل هذه المواقف في ضوء الأدبيات التي رافقت الحملة؛ حيث ساهمت في صوغ الوعي الثقافي لعميد الأدب العربي صوغا حال دون النظر التقدي إلى الحقائق المصاحبة للحملة.<sup>26</sup> فيما أرجع الزيات "فضل الحركة العلميّة الثقافيّة التي عرفتها مصر إبان عهد "محمد علي" إلى الفاتح "نابليون بونابرت"، يقول في ذلك: "كان ذلك كلّه وقودا جزلا للقبس الذي ألقاه "نابليون" بمصر، ونفخ فيه "محمد علي"، فذكا واشتعل، وامتدّ لهيبه إلى الشام، وسائر بلاد العرب، فأيقظ النيام، وبدد الظلام".<sup>27</sup>

فما هو السبيل لقراءة هذه المواقف؟ إن لم تقرأ ضمن إطار وعي عربي نخبويّ تمّ استلابه، وارتسمت تضاعيف ذلك الاستلاب في الثقافة العربية التي أضحت ثقافة "مطابقة"، وليس ثقافة "اختلاف". فهي في جملة ممارساتها العامة، واتجاهاتها الرئيسية تهتدي بـ "مرجعيات" متصلة بظروف تاريخية مختلفة عن ظروفها، فمرة تتطابق مع مرجعيات ثقافية أفرزتها منظومات حضارية لها شروطها الخاصّة، ومرة تتطابق مع مرجعيات ذاتية تجريدية متصلة بنموذج فكري قديم.<sup>28</sup>

لقد تنوّعت الصّفات المتخيّلة عن الشّرق ضمن التّمثيل الاستشراقي، وتوزّعت بين شرق "شهواني"، "عجي" "دموي" عجيب "معجبة مثيرة"، ولم يترك هذا الخطاب نقیصة إلا وألحقها بالشرقي، واختزل الشّرق بوصفه أنثى رغبويّة على استعداد دائم، واكتسبت هذه الثّيمة مكانة هامّة في الإنتاج البصري، واللفظي الذي بدأ في القرن الثّامن عشر حاشدا ترسانة كاملة من الحيل المشكّلة في قالب قصصي كالحريم، والحمام العمومي، وسوق الرقيق والمحظيات

والمخصيين وتعدّد الزوجات، والجنسائيّة المثليّة<sup>29</sup>، ومجمل هذه التّخييلات يمكن العثور عليها في أحراش بعض المدوّنات العربيّة المعاصرة المتحلّلة من قيمها الكليّة؛ حيث تظهر وعي نجويّ عربيّ، محكوماً بالموجهات الاستشراقيّة، متماهيا مع الآخر، ممزّقة أوصال كينونته، منقطاً لصورته التي ارتسمت في المخيال الغربيّ عن ذاته العربيّة؛ كأننا بإزاء الرّواية الأوروبيّة التي تناولت الآخر وفق ماتذهب إليه "رنا قبّاني": وفق مقولتين: "الأولى هي الإلحاح على الادّعاء بأنّ الشّرق هو "مكان الفسق والمملدات"، والثّانية هي أنّ هذا الشّرق هو "عالم العنف المتأصّل".<sup>30</sup>

ويتأسّس احتفاء بعض الرّوايات العربيّة بالبعد "البورنوغرافي" للمرأة الشّرقية، ومحاولة تسويق صورة شبقيّة ممتهنة لجسدها، تسترضي بها محيطة الآخر؛ يتأسّس على خطورة بالغة، تندرج ضمن الصّورة الاستشراقيّة التي عملت على تميّطها "الإكزوتيّة" الغربيّة التي تنعت مالا ينتمي إلى الحضارة الغربيّة، أوحى الطّبيعة العربيّة، ومن ثمة فإنّ مصطلح "Exotisme" يبقى مصطلحا خاصّا بالغرب ويضمّه (ج.م. مورا J.M.moura) إلى قاموس مصطلحات المركزيّة الغربيّة.<sup>31</sup>

أمّا المعنى الثّاني الذي يحتمله توظيف تيمة/ الجسد الشبقيّة للشّرق ضمن بعض المدوّنات السردية العربيّة فيتأسّس على أنّ هذا التّوظيف - المشوب - في الفضاء السردية المتخيّل ليس بكتلة، ولا حجم، وإمّا يشير في مدلولاته المتنوعة إلى شبكة مؤثّرات، وهو ليس علامة على ظهور فسحة زمنيّة تستدرجه إليها بقدر ما يكون هو نفسه واهبا لهذه الفسحة المفتوحة، وكلّ ذلك يدلّ على أنّ الجسد ليس فراغا أو سكونا حياديا، وإمّا هو مليء بعلامات تكسبه قيما ثقافيّة معيّنة.<sup>32</sup>

يهمنا في هذا المقام الوقوف عند بعض التماذج الروائية العربية التي استعادت المتخيل الاستشراقي، وفتحت الأفق رحبا للمخيلة الغربية حتى تستعيد هي أيضا "فردوسها المفقود" - بواسطة السردية العربية - الذي راود أحلام يقظتها حيناً من الدهر، ليتكشّف سراها، وضرباً من التوهم. ونماذجنا في هذا روايات أربع لعلها تدخل ضمن هذا المعطى وهي: رواية "سأهبك غزالة" لمالك حدّاد ورواية "ليون الأفريقي" لأمين معلوف، ورواية "ليلة القدر" للطاهر بن جلّون، ورواية "الحزام" لأحمد أبو دهمان؛ حيث وجهت إلى الروايات الأربع موضوع الدراسة تهمتان رئيسيتان؛ الأولى هي استعادة المتخيل الاستشراقي، وبناء صورة غرائبية للشرق، قصد بها إبحار المتلقي الغربي". والثهمة الثانية هي خلق هوية ملتبسة لا تنفصل عن الآخر وتموضع بالنسبة إليه<sup>33</sup> وهو ما لم تتبرأ منه على الأقل مواقف أصحاب هذه الروايات المتداعية بالمتخيل الاستشراقي؛ بل إنّ أصحابها دافعوا عن تخيلاتهم الاستشراقية، واعتبروها جزءاً من مخيال يغذيه تراث بلادهم، إذ يعتبر "بن جلّون": "إنّ النصوص التي نكتبها اليوم بالفرنسية هي في النهاية نصوص مغربية قبل أيّ شيء آخر، ولا يمكن تصنيفها بين النصوص الفرنسية... هذا واضح لأنّ ما يهّم هنا هو المخيلة. لديّ مخيلة يغذيها تاريخ بلادي"<sup>34</sup>؛ لعلها مخيلة منسجمة مع فضاء غربي مثل للوعي العربي المغترب، ذلك الفضاء الذي يتّصف بالحريّة، المجسّد للحدائث في أسمى تجلياتها، لما يسمح لهذا المخيال المغترب أن ينسج عن الشرق - موطنه - ما يوافق أحلام الرومانس الاستشراقي؛ وهو ما يتجسّد عند "بن جلّون" إذ يقول: "...أظنّ أنّ المنفى سمح لي بالتّطرق إلى مواضيع محرّمة في بلادنا مثل الجنس، ووضع المرأة"<sup>35</sup>.

لم يقتصر هذا التماهي على الرؤية المستلبة التي تدعن للغرب بتفوقه ومركزيته، وتمثّل مقولاته عن الشرق وإثماً يصبح الشرق ضرورة غربية للمتعة، وتسلية تُكسر بها رتابة الحياة عند الآخر؛ فأمين معلوف يعتقد: "بأنّ الغرب بحاجة دائمة إلى الشرق، لأنّ الشرق هو موطن الحلم، والابتعاد عن الحياة الرتيبة، وأحاول كذلك أن أروي قصصاً عن مراحل قديمة، قصصاً تجعل الشرق أقرب إلى قلوب الغربيين"<sup>36</sup>. هذه المهمة التي حاول "معلوف" أن يروي بها رغبة

الآخر، ويتماهى مع أخيلته نجد تمثيلها السردى في رواية "ليون الأفريقي" بهذا التوصيف "الإيكزوتيكي": "يرى أنّ السلطان ذات صباح جمع أفراد حاشيته في ساحة "الريحان" ليشاهدوا هذه الروميّة وهي تستحمّ، وإذ انتهت عمليّة الاستحمام فقد دعا الأمير كل واحد إلى شرب طاس من الماء الذي خرجت ثريا-اسم الروميّة- منه، وهلّلوا جميعا نثرا وشعرا، للطعم الرّكي الذي اكتسبه ذلك السائل".<sup>37</sup>

لعلّ نسقا واحدا يحكم هذه الروايات، وهذه الرؤى المتماهية مع الآخر؛ ف"سأهبك غزاة" حكاية عشق رومانسيّة بين فتاة وشاب ينتميان إلى بيئة شرقية بامتياز. وأمّا "ليون الإفريقي" فإنّ فضائها التاريخي يحوّها أن تشتغل على تنوعات أكثر تقليديّة في عالم الحرّيم، كالجاري والرقص وتعدّد الزوجات والمتعة. وفي "ليلة القدر" يتمّ إضفاء بعد جنساني-إيروتينيكي في جوّ من الغرائبيّة. أمّا "الحزام" فيكشف عن تراتبيّة المرأة في عالم ذكورة بدائي وهي مندفعة في عشق الرّجل، إلى درجة إنكار الذات.<sup>38</sup>

لقد شكّلت هذه الاستيهامات مجتمعة وعيا سردياّ مستلبا، تشكّل ضمن علاقة مضطربة مع موضوعاته وأشياءه، وتظهر مفارقا لإرثه التقائي، منسجما مع الدعاية الاستشراقية عن الذات العربية، مطمئنا في دعة استجلبها تماهيا، موجودا في تخوم حدود فاصلة بين ثقافتين، بين هويّتين، تمثّل متخيلاّ استشراقياّ مشوّها، فأماط عنه المتخيل اللّثام.

## 5/ إعادة التشكيل / محاولة في التفكيك:

لقد انحط التمثيل السردى ضمن حلبة المواجهة شرق/غرب، ب بروز أدب ما بعد استعماري، مضطّع بقضايا الذات والوعي والخيال، غدا من خلاله الغرب متاحا لكلّ أشكال التّميّط والتّخييل، فكسرت نمطيّة صورة "رجل المشروع" الأبيض المخلّص، وعكست العلاقة الأسطورية للغرب الذّكوري، بالشرق الأنثوي؛ فالمعارف التي أنتجت ضمن حقل معرفي كان

الغرب يملك السيطرة عليه، قد انفجرت، والتأثير بدا لافتا لأدب قادم من عالم ما بعد استعماري، وهو العالم الذي ما عاد واحداً من الأمكنة المظلمة من الأرض بحسب تعبير كونراد Joseph Conrad بل غدا من جديد فضاء يتبلور فيه جهد ثقافي يفصح عن حيوية بالغة.<sup>39</sup> جهد وجدت السردية العربية ذاتها فيه؛ باعتبار العالم العربي/الشرقي، قد مورست عليه كل أشكال التمثيل المشوه، وأضحى السرد العربي مطالبا باستعادة الشرق كما هو في الواقع، لا كما استقرّ في الخطاب الاستشراقي؛ ما أنتج ضرباً من "السرد الكثيف"،<sup>40</sup> الذي طبع عديد الأعمال الروائية، التي انخرطت ضمن دائرة الرهانات الكبرى في التمثيل السردية، وكان من جملتها: رواية "عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم، ورواية "أحلام يولاند" لفؤاد الشائب، ورواية "مدن الملح" لعبد الرحمن منيف، ورواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح، هذه الروايات التي يبدو أن خيطاً رفيعاً يشكّل رؤيتها ويهدف لإعادة تشكيل الصورة التي ما فتئت المخيلة الاستشراقية تنسجها عن الشرق؛ ليمتظهر الشرق في هيئة البطل الذكوري، بمقابل غرب أنثوي، رمزه الفتاة الشقراء، في علاقة عكسية غدا فيها الشرق فاعلاً والغرب مفعولاً به؛ وهو ما تحفل به رواية "موسم الهجرة إلى الشمال"؛ التي يندفع بطلها مقتحماً لفضاء الآخر/الغرب، في رحلة عكسية لما انتهجه المركز نحو شعوب الهامش، يتمظهر فيها البطل "مصطفى سعيد"، وهو يحاول استعادة وعيه وبناء علاقة تكافؤية ندية مع الآخر، عبر علاقات يقيمها مع نساء أوروبيات، في ممارسة حافلة بترميز متخن كائن في وعي سلبى خلفته تمثيلات الآخر عن ذاته الشرقية؛ فقد لاحظ "إدوارد سعيد" أن "مصطفى" يقوم بدور معاكس لما قام به "كوارتز" في رواية "قلب الظلام" لجوزيف كونراد، فكوارتز يرحل إلى "الأقاليم السوداء" فيما يرحل مصطفى سعيد إلى "الأقاليم البيضاء". وهذا ليس الفارق الوحيد بينهما، إنما الفارق المهم هو أن الأول شأنه شأن "روبنسون كروزو Robinson Crusoe" في رواية "ديفو" يرمز إلى الرجل الأبيض الذي يؤمن بنسق من القيم الفكرية والدينية والأخلاقية التي توظف لإنقاذ "الآخر" من خموله وتخلّفه، وتحت الوهم الخادع بتغيير وضعه "الآخر" يتم تطبيق برنامج

السيطرة الاستعمارية بوجوهه الثقافية السياسية والاقتصادية، أما الثاني فلا يسكنه هاجس التفوق، إنما هو يدفع بالعنف عنفاً كان اختزله إلى كائن سلبي، فرحل طالبا بالتأثر في عقر دار الغازي الأصلي، كان يريد أن يردّ على أولئك الذي أرادوا مسخه حينما علموه كيف يدعن لهم ليقول "نعم" بلغتهم.<sup>41</sup>

لم تنفصل تيمة الغرب/الأنتى عن تمثيلات السردية العربية الساعية لاستعادة ذاتها عبر تنميط الآخر وفق مبدأ المعاملة بالمثل؛ وهو ماخلص إليه "طرايشي" في رواية "عصفور من الشرق" حيث لاحظ: "إصراراً عجيباً على وصف أوروبا، في كل مرة يأتي فيها لها ذكر، بأنّها فتاة شقراء"<sup>42</sup> وهو ما يتكرّر مع رواية "أحلام يولاند"، الحاملة بشرق "ألف ليلة وليلة"، المرتسم سحراً بنكهة غرائبية تبعث على شعف دفع بها لمحاولة استدعائه في مقهى "شرقي" أقامته في قلب باريس، "في جوّ شرقي كما تخيّلته الغرب، في مسرح ليس على الضبط شرقياً طبيعياً، فيكاد يكون من خلق الكوميدي فرانسيز".<sup>43</sup>

أما رواية "مدن الملح"، فقد سعت لتعريف التمثيل الاستشراقي، والمغالطات الكبرى التي عمل على تسويقها عن الشرق؛ وذلك من خلال العجوز "براندي" عميل المخابرات بلندن، برمزيته للخلفية التخيلية للمنظومة الاستشراقية، والتي ينفثها في كلّ مرة على شكل نصائح لامتداده "بيتر ماكدونالد Peter MacDonald" عميل المخابرات بالشرق، تلك النصائح التي تحمل كلّ نقيصة عن الشرقي؛ من "تسرّع"، و"شدة غضب"، و"حماسة"، وغيرها من الأوصاف التي تنطوي على تسخيف للذات، والعقلية العربية، والتي حاول "منيف" قلبها بتسخيف مضافاً بطريقة معكوسة في آخر فصول روايته، وذلك من خلال النتيجة التي عاينها "بيتر" عن الشرق، لا كما سمعها وقرأها يقول: "ليس سهلاً أن تفهم الشرق، أو تتعامل معه، حتّى لتبدو لي جميع الكتب التي قرأتها، أو الأحاديث التي سمعتها عن الشرق مجرد كلمات فارغة التقطها أناس عابرون وسجّلوها".<sup>44</sup> وقد قدّر لهذه المغالطات في النهاية أن تدفع بالإمبراطورية إلى

التقسيم بحسب المناص الذي افتتح به القسم الأخير من الرواية، وهو كلام منسوب ل (تشرشل) السياسي البريطاني المعروف "لم أصبح رئيس وزراء جلاله الملكة لكي أصفي الإمبراطورية البريطانية؛" هذا المناص يدخل في علاقة مفارقة ساخرة مع أفعال (بيتر ماكدونالد) في خاتمة الرواية التي أكدت فعلا على تصفية الإمبراطورية، وبذلك يخضع منيف انطباعات الغرب والإنكليز خاصة إلى تسخيف مشابه.<sup>45</sup>

## 6/ التسوية العربية وتفكيك المتخيل الاستشراقي:

لعله من الذكورية -بمعناها الاستشراقي- ألا نعرّج ضمن هذا البحث، على واحدة من أهمّ التمثيلات التي نسجها الغرب عن الشرق؛ إنها تيمة/المراة/الشبقية/الدونية/مرتع النزوة، كما اخترها خطاب استشراقي، يستند لتراث فلسفي حافل بالذكورية؛ حيث تعتبر "ليلى أحمد": "أن نظريات أرسطو قامت بتصوير المراة لا على أنها مجرد تابع للرجل كضرورة اجتماعية فحسب، وإنما بوصفها أدنى منه فطريا وبيولوجيا من حيث قدراتها العقلية والبدنية ومن هنا أصبحت في وضع الخضوع والخنوع "بطبيعتها"، وكان التخلّص من البنات عن طريق تركهن للموت في الخلاء معروفا لدى الرومان ويقرّه القانون بصورة غير مباشرة، وبالتنظر إلى شيوع وأد البنات في طبقة الأرستقراطية الرومانية، يتضح أنه لم يكن مرتبطا بالفقر".<sup>46</sup>

وفي الاستشراق الكلاسيكي انشغل أشخاص مثل "موباسانMaupassant" و"أندريه جيد André Gide"، و"جوته Goethe"، "فلوبير Gustave Flaubert"، و"لامارتين Alphonse de Lamartine" و"فيكتور هوجو Victor Hugo" بالمراة الشرقية والأوصاف الحسية والمغامرات الجنسية، والكيفية التي استثمروا بها هذه الأفكار وروجوا بها داخل الوعي الغربي، تلك الأفكار التي أضحت جزءا من النظرة الأوروبية الشاملة حول آسيا وأفريقيا والتي لعب الجنس دورا فاعلا فيها".<sup>47</sup>

لعل تشكل النسوية ضمن نظرية الدراسات ما بعد الاستعمارية، يرجع للعلاقة الجدلية التي تأسست بفعل الخطابات المشوهة التي طالت المرأة، والتي يحفل بها التمثيل الاستشراقي الذي يعتبر وجه الاستعمار الثقافي؛ ومن ثم ترى (بمعنى طريف الخولي): "أن النسوية ينبغي إنزالها في سياق نقد الحضارة الغربية، فالموجة النسوية الأولى هي إحدى تجليات الحداثة التنويرية يمثلها العقلانية التي تجسد الذكورية، وقد طمست خصوصيات المرأة. أما الموجة الثانية، أي النسوية الجديدة، وتقصد بها: نسوية ما بعد الحداثة فأبرز ما يميزها هو نقد النموذج العقلاني الذكوري للإنسان، وتتلخص في أن مركزية العقل الذكوري الغربي قهرت المرأة والطبيعة، والشعوب خارج المجال الأوربي.<sup>48</sup> وهي الممارسات الذكورية التي حملت "دريدا Jacques Derrida" على توصيفها بمصطلح "التمركز حول القضيب Phallogocentric" وعلى هذا دفعت الميتافيزيقيا الرجل/ الذكر إلى واجهة الاهتمام بسبب امتلاكه هذا العضو فيما أقصيت المرأة وجرى تغييرها لدورها لافتقادها إلى ذلك العضو تحديدا.<sup>49</sup>

يهتمنا ضمن هذا السياق الوقوف عند النسوية العربية، وتمثيلها السردية الذي سعى لمراجعة أبنية التمثيلات الاستشراقية عن المرأة العربية، وذلك من خلال تيمتي "الحريم"، و"الحجاب"؛ فكيف تظهر المتخيل الاستشراقي ضمن السردية النسوية العربية؟ وما علاقة ذلك ببناء هوية نسوية عربية ما بعد استعمارية؟

لقد مثلت تيمة/الحريم، للخطاب الاستشراقي ذريعة حاول من خلالها الغرب الذكوري، العزف على وتر اللغة النسوية، وكان من جملة هذه الإستراتيجية الصور التي عززتها رسومات المستشرقين؛ صورة قهر الأب الأسمر أو الأخ أو الزوج القاسي لنساء بيته "الحريم". إن "الحريم" كلمة عربية استعيرت واستعملت في اللغة الإنجليزية Harem لتعكس صورة المرأة الشرقية المسلمة حبيسة هذا العالم القاسي.<sup>50</sup>

دخلت المرينسي في مواجهة التمثيلات الاستشراقية، التي نسجها متلصص ذكوري غربي حول وضع حريمي عربي يفترض فيه العزلة، وانتهجت ضمن خطاباتها وضعا حريميا معكوسا؛ ففي روايتها السيرة "أحلام النساء الحریم" أفردت فصلا بعنوان "الحریم الفرنسي"، حاولت من خلاله إنتاج الآخر على هيئة الحریم الذي رشحت به تمثيلاتة؛ فكانت المدينة الجديدة في الرواية موقع "الحریم المعكوس"؛ مدينة بناها الفرنسيون لأنفسهم "لأنهم خائفون من العيش في مدننا" وبالعكس كان المستعمرون هم الذين تأثتوا، وأسلحتهم كانت الحجاب الذي اختبأوا خلفه لحماية أنفسهم من التهديد "الذكوري" للرجال في المدينة؛ وبذلك يؤول الأمر بالاحتلال الفرنسي إلى تشييد حریم خاص به عوضا عن تحقيق "حلم تجاوز الحدود".<sup>51</sup>

توقّف المرينسي عند محطّات من تاريخ الغرب، تكشف عن نظام حريمي لعلّ محيّل المستشرقين لا تزال تضرر رغبة خفية لاسترجاعه، فكان الشرق ساحة ذلك المخيال الحالم المشوّه، فيما تربط المرينسي ذلك بتساؤلات -في كتابها "هل أنتم محصّون ضدّ الحریم؟"- عارفة: "لماذا لا تتمحور استيهامات الألمان، والفرنسيين، والأسبان وغيرهم من الشعوب الغربية التي تنتمي إلى الحضارة الإغريقية-الرومانية، حول حریمهم الخاصّ الذي كان معروفا في حضارتهم القديمة؟".<sup>52</sup> والذي حاول الغرب إسقاطه على الشرق، عبر تقنية الإيحاء المنافية للواقع، لكنّ المرينسي تميّط عنه اللثام، وتعيد من خلال مقارنات عقدتها في مؤلفها "شهرزاد ترحل إلى الغرب"، استكناه سرّ الرغبة الذكورية الغربية في هذا الصنيع الشنيع فتقارن: "إنّ حريمي يحيل على واقع تاريخي، أمّا حریمهم فيستمد قوته من الصّور التي خلقها الرّسامون الذين كانوا يستمتعون بخلق نساء "سجينات"، رابطين بذلك بين رباط لا مرئي بين المتعة والاستعباد".<sup>53</sup>

لم تقتصر المرينسي في سردياتها على كشف الاستيهامات الشبكية التي طبعت الذكورية الغربية في تمثيليتها لنساء الشرق؛ بل راحت تعقد المقارنات بين موروث الشرق والغرب عن

الحريم، ووضع الجوارى في سياق الحضارتين، وبيان وضع حريمي شرقي تمّ تغييب المزايا التي حظي بها في ظل الحضارة الإسلامية، والحقوق التي لم يحصل وأن عرفتها حضارة من قبل "فقد كان بمقدور السبايا الأعجميات في حريم هارون الرشيد إطلاق العنان لطموحهن برؤية ابنهن خليفة، وورثنا لعرش أبيه، وحاكما على الإمبراطورية الإسلامية. أما هذا الأمل فكان محرماً تماماً على جارية الإمبراطور الإغريقي أو الروماني".<sup>54</sup>

لعلّ ثيمة "الحجاب" لا تقلّ رمزية عن موضوعة "الحريم"؛ لارتباطهما بالمعنى المعطى لهما ضمن سياقات التمثيل والتّمثيل المضادّ؛ ومن ثمّ كان للحجاب دلالة كثيفة في السردية النسوية العربية، وتظهر رمزا للهوية، فيما مثل تعالقه مع الجسد محورا للصراع بين الشرق والغرب؛ حيث سعت الأدبيات الاستشراقية لكشف هذا الحجاب عن جسد المرأة العربية، وهو ما تجلّى في مختلف اللوحات الفنية المحتفية بجسد عار، أو نصف عار، في جوّ إيروتيكّي، لامرأة عربية مسترخية، لا همّ يراودها سوى إشباع رغبات سيدها.

هذه المشاهد التي نزع عنها "فرانز فانون Frantz Fanon" الواقعية، وأدرجها ضمن طروحات الغرب الاستشراقية الساعية لتعويم نموذجها الحضاريّ عن المرأة؛ بضرب المجتمع الشرقي - الجزائر أنموذجه هنا - من خلال انتهاج إستراتيجية ضرب الحجاب والقيمة الرمزية التي يحملها، فحسب فرانز فانون، استطاعت الإدارة الاستعمارية تعريف نظرية سياسية محدّدة قائلة: "إذا أردنا أن نضرب المجتمع الجزائري في صميم تلاحم أجياله/ وفي خواص مقاومته، فيجب علينا قبل كل شيء اكتساب النساء، ويجب علينا السعي للبحث عنهن خلف الحجاب حيث يتوارين، وفي المنازل حيث يخفيهن الرجل".<sup>55</sup>

لقد فهمت "آسيا جبار" تركيز الغرب في صراعه مع الشرق على الأشياء القيمة ضمن موروثاته الحضارية والسعي الدؤوب لمسح أيّ موروث يحمل على تمايز يحفظ للشرق هويته،

فجسدت تلك الرؤية في محاولة إعادة تعريف الحجاب ضمن روايتها "فانتازيا؛موكب جزائري"؛ إذ يتضمّن استخدام آسيا لرمز شرقي - الحجاب - مشبع إعادة التفكير في الطريق التي يصوّر الرّمز من خلالها العلاقة بين الجندر والهوية الوطنيّة.<sup>56</sup> فيما تنطوي محاولات نزع الحجاب في الرواية من قبل المستعمر، على طبيعة محيّرة للتعريفات الثقافيّة، ويمثّل نزع الحجاب حينما يكتب بالفرنسيّة، ليس مستويات متفاوتة من الانتهاك فقط، بل يمثّل شعورا متزّدا بالخيانة والإذلال، إنّه يكشف مالم يكشفه الغزاة الفرنسيّون بشأن إخضاع الجزائريين.

ويمكن تلخيص موقع ثيمة/الحجاب ضمن الصّراع شراق/ غرب، في كلام محامي أوروبي، يكشف فيه الرّغبة الشّبقيّة العربيّة المستحيلة شرقا، يقول: "...إن هؤلاء الرجال يقتربون إنّما بكشفهم عن هذا القدر من المحاسن العجيبة. ثم ختم كلامه بقوله: عندما يحتزن شعب ماجمّالا باهرا مثل هذا، كمّالا كهذا، الذي تجود به الطّبيعة يكون لزاما عليه أن يبرزه وأن يعرضه. و في نهاية الأمر فلا بد أن نقدر على إرغامه على ذلك".<sup>57</sup>

#### الخاتمة:

لقد رامت هذه المقاربة، الكشف عن حضور "المتحيل الاستشراقي" في السردية العربية المعاصرة "مطابقة" كانت أو "منافحة"، وحاولت في ذلك فهم الطروحات الاستشراقية المتبلورة أساسا، وفق إستراتيجية تحييلية مبنية على خاصية التوهّم، ضمن عملية ذهنية معقدة تقوم على تفصيل وتركيب صور نمطية مفارقة للواقع الشرقيّ، عبر واسطة التمثيل السردية بصيغته الروائية أساسا، والذي يكتسي أهمية بالغة ضمن حقل الدراسات الثقافيّة، وينطوي على دلالات متعدّدة تتجاوز حدود الظاهر نحو معاني أخرى لا يمكن العثور عليها إلا عبر الحفر والتفكيك.

وقد تظهر الوعي العربيّ خلال هذه الدّراسة التي لامست نماذج روائيةً عربيّة معاصرة، متفاوتا في استدعائه المتخيّل الاستشراقي؛ بين نماذج روائيةً لحّصت وعيا عربيّا مفارقا لروافده ومستنداته الفكرية، من خلال تكريسه لصور نمطية استشراقية عن الذات العربية، عكست العلاقة المضطربة لهذا العقل مع موضوعاته وأشياءه، فيما تظهر وعي عربيّ منافح مقوّضا للمخيل الاستشراقيّ، ضمن إستراتيجية معاكسة، جعلت من الآخر/العربيّ متاحا لكلّ أشكال التّمنيط والتّخييل.

ولم تغفل هذه المقاربة الوقوف عند التّسوية العربية مابعد الاستعمارية، والتي كانت معنية بهذا الرّهان، بوصف المرأة العربية تعرّضت لأشنع التمثيلات الاستشراقية، فأثرت استعادة صورتها كما هي في الواقع، لا كما استقرّت في خطابات التّلتصص، والتّلفيق، وقد انتهجت في ذلك مساءلة خطابات المعرفة الاستعمارية، عبر إعادة تعريف رموز مشبعة بدلالات كثيفة متمثلة في تيمتي "الحجاب"، و"الحريم"، وهي بهذا تروم ترمم هوية نسوية عربية وتفكيك الثقافة الغربية الذّكورية وامتصاص التّحيّزات التي استوطنتها عبر التّاريخ.

#### الهوامش:

بوال، محمّد: من المخيلة إلى المخيال دراسة في تاريخ المفهوم، مجلّة الواحات للبحوث والدّراسات، العدد 13، قسم علي الاجتماع، المركز الجامعي غرداية، الجزائر، 2011، ص (102-123)، مستخرج يوم: 2017/02/16 من موقع: <http://elwahat.univ-ghardaia.dz>

1. كاظم، نادر: تمثيلات الآخر (صورة السّود في المتخيّل العربيّ الوسيط)، المؤسسة العربية للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان ط1، 2004، ص34.
2. المرجع نفسه، ص39.
3. أفاية، محمد نور الدّين: المتخيّل والتواصل مفارقة العرب والغرب، دار المنتخب العربي للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص 16.

4. المرجع نفسه، ص 17.
5. خليف، خضير محمود: الاستشراق والاستغراب "السلطة، المعرفة، السرد، التأويل، المرجعيات"، ص 19 مستخرج يوم: 2017/02/10 من موقع: <https://books.google.dz>
6. المرجع نفسه، ص 22.
7. إبراهيم، عبد الله: السردية العربية الحديثة (تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير التثأة)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2013، ص 21-22.
8. المرجع نفسه، ص 55.
9. الخضراوي، إدريس: الأدب موضوعا للدراسات الأدبية، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية (فصلية)، المجلد الثاني، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، العدد 7، شتاء 2014، ص 116.
10. كاظم، نادر: تمثيلات الآخر، ص 47.
11. المرجع السابق، ص 11.
12. المرجع نفسه، ص 116.
13. إبراهيم، عبد الله: موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 2 (موسعة)، 2008، ص 137.
14. إبراهيم، عبد الله: التخيل التاريخي والتمثيل الاستعماري للعالم، مجلة يتفكرون (فصلية، فكرية، ثقافية)، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، العدد الثالث، شتاء 2014، ص 54.
15. الخضراوي، إدريس: الأدب موضوعا للدراسات الأدبية، ص 116.
16. المرجع نفسه، ص 124-125.
17. إبراهيم، عبد الله: التخيل التاريخي والتمثيل الاستعماري للعالم، ص 53.
18. الخضراوي، إدريس: الأدب موضوعا للدراسات الأدبية، ص 130.
19. المرجع السابق، ص 54.
20. المرجع نفسه، ص 54.
21. الموسوي، محسن جاسم: الكتابة العربية في عالم متغير (واقعهما، سياقاتهما، وبنائها الشعورية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 2005، ص 54.
22. أفاية، محمد نور الدين: الغرب في المتخيل العربي، منشورات دائرة الثقافة والإعلام - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة، ط 1، 1991، ص 14.

23. إبراهيم، عبد الله: السرد والتمثيل السرد في الرواية العربية المعاصرة - بحث في تقنيات السرد ووظائفه - مجلة علامات، جامعة قطر، عدد 16، ص 6.
24. بالار، محمد: الأسس الفكرية للأدب العربي الحديث، كلية أصول الدين، جامعة أولوداغ، العدد 2004، 1، (صص 17-38)، ص 27-28 (بتصرف).
25. إبراهيم، عبد الله السردية العربية الحديثة، ص 49.
26. المرجع نفسه، ص 49.
27. إبراهيم، عبد الله: موسوعة السرد العربي، ص 153-154.
28. فرج، نورة: إرتباكات الهوية (أسئلة الهوية والاستشراق في الرواية العربية-الفرنكفونية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط 1، 2007، ص 26.
29. المرجع نفسه، ص 46-47.
30. رايس، رشيد: صورة الجزائر والجزائري في الكتابات التثريّة الفرنسيّة خلال القرن التاسع عشر، (أطروحة دكتوراه)، إشراف: الربيعي بن سلامة، قسم اللغة العربيّة وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري-قسنطينة، الجزائر، 2004، ص 103.
31. التعميمي، فيصل غازي: شعريّة المحكي (دراسات في المتخيل السردّي العربي)، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 2013، ص 13.
32. فرج، نورة: ارتباكات الهوية، ص 157.
33. بركات، حلیم: الاغتراب في الثقافة العربيّة (مناهات الإنسان بين الحلم والواقع)، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، لبنان، ط 1، 2006، ص 153.
34. فرج، نورة: ارتباكات الهوية، ص 18.
35. المرجع نفسه، صص 18-19.
36. المرجع نفسه، ص 39.
37. المرجع نفسه، ص 28.
38. الخضراوي، إدريس: الأدب موضوعا للدراسات الأدبيّة، ص 122.
39. إبراهيم، عبد الله: السرد والتمثيل السرد في الرواية العربية المعاصرة، ص 6.
40. إبراهيم، عبد الله: موسوعة السرد العربي، ص 143.

41. جورج طرابيشي: شرق وغرب رجولة أنوثة-دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية - دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1997، ص28.
42. المرجع نفسه، ص52-53.
43. التّعيمي، فيصل غازي: شعريّة المحكي، ص41.
44. المرجع نفسه، ص41.
45. إبراهيم، عبد الله: موسوعة السرد العربي، ص270-272.
46. الشيخ، ممدوح: الاستشراق الجنسي (الحرب على النقاب)، دار ابن رشد، القاهرة، ط2، 2015، ص42-43.
47. المرجع السابق، ص249.
48. إبراهيم عبد الله: المطابقة والاختلاف (بحث في نقد المركزية الثقافية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص640. مستخرج يوم: 2017/02/11 من موقع: <https://books.google.dz>
49. الشيخ، ممدوح: الاستشراق الجنسي، ص58.
50. أحمد، مغراوي إدريس، وآخرون: مابعد الاستعمار والقومية في المغرب العربي، ص126-127 (بتصرف).
51. المريني، فاطمة: هل أنتم محصّنون ضدّ الحريم، تر: نهلة بيضون، المركز الثقافي العربي، دط، دت، ص102. مستخرج يوم: 2017/02/05 من موقع: [www.books4arab.com](http://www.books4arab.com)
52. المرجع نفسه، ص98.
53. المريني، فاطمة: شهرزاد ترحل إلى الغرب، تر: فاطمة الزهراء أزرويل، المركز الثقافي العربي، دط، دت، ص27. مستخرج يوم: 2017/02/05 من موقع: [www.books4arab.com](http://www.books4arab.com)
54. الشيخ، ممدوح: الاستشراق الجنسي، ص94.
55. أحمد، مغراوي إدريس، وآخرون: مابعد الاستعمار والقومية في المغرب العربي، ص131 (بتصرف).
56. المرجع نفسه، ص137.
57. الشيخ، ممدوح: الاستشراق الجنسي، ص95.